وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

مرتكزات التعايش السلمي في الهدي القرآني

(دراسة تحليليّة)

اسم الباحث/ـة

د/ محمد رشيد بوغزالة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ليفوز الحامدون الشاكرون، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الهادي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وعلى من اهتدى بهديه وسار على نهجه السويّ القويم، ورضي الله عن آل بيته الطاهرين وعن صحابته الغرّ الميامين، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..؛

اقتضت سنن الله –سبحانه وتعالى– في الكون والخلق أن انتخب بني البشر وفضلهم عن جملة الخلائق، بل سخّر لخدمتهم الكون وما حوى ليسعدوا ويغنموا لعلهم يتفكرون؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ١٣.

كما اقتضت سنته في خلقه أن طُبع الإنسان على الميْل إلى الأنْس مع من حوله من بني جنسه لأنّه اجتماعي بطبعه، بلْ ما سُمّي الإنسان إنساناً إلا لأنّه يأنس بغيره، وغيره يأنس به.

وهذا لا ينفي سنة التدافع والمغالبة لما جُبلت عليه الأنفس من الدّعة والرّكون إلى الدنيا والاستكثار من عرض الدنيا وزخرفها وكراهة الموت، وتنافسوها حتى تكاد تهلكهم إلا من لطف به الرؤوف الرحيم.

والله –جلّ جلاله– فاضل بين الخلائق في أمور الدين والدنيا، فمنهم شقيّ وسعيد، ومنهم غنيّ وفقير، وما بينهما يتفاوت المتفاوتون، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢ ﴾ الزخرف: ٣٢. وقضت حكمة الله –سبحانه وتعالى– أن يختلف البشر في العقول ويتمايزون في

المدارك، وكان نتاج ذلك اختلافهم في مذاهبهم ومعتقداتهم إلى سبل شتى، منهم المؤمن والكافر والمشرك والملحد والمنافق، بل المؤمنون درجات .

والأصل في بني البشر أنهم يتعايشون، ويحفظ بعضهم حرْمة بعض في دمائهم وأعراضهم وأموالهم، بيْد أنّ الشيطان يزغ في قلوب ضعفائهم وذوي الأهواء ليعتدي الإنسان على الإنسان، وتلك كانت حجّة الملائكة على تدبير الاستخلاف الإنساني في الأرض قَالَ تَعَالَى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٣٠. والله يعلم ما لا يعلمه أحد من خلقه؛ فله الأمر كلّه، وهو الحكيم العليم، علاّم الغيوب.

وفي مضامين سنة الاستخلاف تكمن ضرورة التعايش البشري في أمم وقبائل يسود بين ظهرانيهم الأمان، وتسلم في عالمهم الأنفس والأعراض والأموال.

وأعظم جرْم يقترفه الإنسان أن يهتك سنّة التعايش، فيسفك دم الإنسان تعلّقا باختلاف في الاعتقاد، أو المذهب أو الانتماء العرقي أو القبلي، وكان مقت الله ﷻ عظيماً لما قتل ابن آدم أخاه وأعرض عن سنة التعايش، فمن أجل ذلك كتب الله ﷻ القصاص على بني إسرائيل ومضت سنّته إلى الشريعة الخاتمة.

وقد اتفقت جميع الشرائع على دعوة أقوامها إلى التعايش بسلام، ونبذ كلّ سبل الفرْقة والظلم والمنازعة، إلاّ أنّ ذلك بدا جليّا في هدايات القرآن الكريم، وتضمنت تقاسيم آياته وسوره رسم السبل الكفيلة لبناء مجتمع المثُل

الذي يعيش فيه الناس بأمْن وسلام، ويحترم فيه الإنسانُ الإنسانَ، ويحفظ حرمته وكرامته.

وهنا يتبادر إلى أذهاننا تساؤلٌ حقيقٌ بالتأمّل وأخْذ زمام البحث فيه وهو: إذا كان القرآن الكريم قد كفل حرّية المعتقد، وأقرّ بحقّ الوجود لغير المسلمين في جوار المسلم وفي غير جواره، فكيف أسّس القرآن الكريم في هداياته لركائز التعايش السلمي مع مَن منحهم حق اختيار المعتقد المخالف؟

وتنبثق عن هذا التساؤل الرئيس عدّة تساؤلات فرعية؛ ما المقصود بالتعايش السلمي؟ ما هي المرتكزات الأساسية للتعايش السلمي في الهدي القرآني؟ ما هي مظاهر التعايش السلمي من خلال الهدي القرآني؟

وقد اجتهدت في الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها بمنهج استقرائي تحليلي، مقتبساً من الهدي القرآني ما فتح الله ﷻ به علينا من خيره وفضله،

وقد اختصرت هذه الورقات في : مقدمة ، وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التعايش السلمي: المفهوم والتأصيل.

المبحث الثاني: مرتكزات التعايش السلمي:الإنسان وعالمية خطاب القرآن.

المبحث الثالث: مظاهر التعايش السلمي من خلال الهدي القرآني.

واللهَ أسأل التوفيق والسداد وله الحمد في البدء والختام، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

المبحث الأول: التعايش السلمي: المفهوم والتأصيل.

المطلب الأول: مفهوم التعايش السلمي

التعايش لغة: لما تأمّلنا في معاجم العربية عن معنى التعايش وجدنا أنه مرتبط بمعنى الحياة، وما يدور على أديم الأرض من تقاسيم المعيشة بين البشر، وتبادل المنافع والمصالح بينهم.

قال ابن فارس: العين والياء والشين أصل صحيح يدل على حياة وبقاء، قال الخليل: العيش: الحياة. والمعيشة: الذي يعيش بها الإنسان: من مطعم ومشرب وما تكون به الحياة[١].

ومثل ذلك قَالَ اللَّيْث: العَيْش: الْمطعم وَالْمشْرَب وَمَا يكون بِهِ الْحَيَاة. وَالْأَرْض معاش لِلْخلقِ[٢]. وفي هذا المعنى قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٠.

وفي القاموس: العيش: الحياة. والمعِيشَةُ التي تَعِيشُ بها من المطْعَمِ والمشْرَبِ، وما تكونُ به الحياةُ، وما يُعاشُ به أو فيه[٣].

وفي معنى التعايش ما ينبثق عن المعاشرة من التشارك والتعاون في أحوال العيش والتناصح والتشاور؛ قال في لسان العرب: عايشه: عاش معه كقوله عاشره؛ قال قعنب بن أم صاحب:

وقد علمت على أني أعايشهم، *** لا نبرح الدهر إلا بيننا إِحن[٤]

---

(١) معجم مقاييس اللغة، الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، باب العين والياء وما يثلثهما، ج ٤ ص ١٩٤.

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، باب العين والشين من معتلّ العين، ج ٣ ص ٣٩.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب، باب الشين، فصل العين، ص ٥٩٩.

والتعايش مصوغة على وزن تفاعل التي لا يستغنى فيها بفاعل واحد، وإنما تدلّ على الاشتراك في الفعل بأكثر من واحد.

مفهوم السِّلمي:

السِّلم لغة: السّلم اصطلاح يجمل معاني الحفظ والنجاة من المساوئ والعاهات والأخطار والعيوب والنقائص...

قال ابن فارس: السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية... والسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى[١].

ومن أسماء الله ﷻ الحسنى السلام، لأنه في جميع أفعاله سلام؛ فهو الحافظ المنجي، لا خوف، ولا ظلم ولا خلل ولا تفاوت. وقيل السلام لأنه سلَّم عباده من ظلمه[٢]. وقيل لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء[٣]. وقد اختار من اشتقاق السّلم عَلَما على دينه الحنيف الذي تعبد به أنبياءه وتابعيهم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران: ١٩

تعريف التعايش السلمي كمركب وصفي:

بحكم حداثة المصطلح باعتباره مركبا وصفيا اقتضته العلاقات الدولية الحديثة لذلك لا نجد له تعريفاً في المصادر القديمة، بل اجتهد العلماء والباحثون المعاصرون في صياغة مفهوم منضبط للتعايش السلمي.

فعرفه بعضهم بأنه: تفاعل متبادل بين طرفين مختلفين في العادات أو المعتقد والدين، ويكون في المجتمعات المتنوعة الديانات والثقافات التي ينتمي أفرادها إلى أصول مختلفة في الثقافة

---

(٤) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، باب الشين، فصل العين المهملة، ج ٦ ص ٣٢١

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، باب السين واللام وما يثلثهما، ج ٣ ص ٩٠.

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى، ج ٢ ص ٢١٧

(٣)معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، باب السين واللام وما يثلثهما، ج ٣ ص ٩٠.

أو الدين أو العرق[1].

ويُؤخذ على هذا التعريف عدة مآخذ:

أولاً: أنه أطلق مصطلح التفاعل ولم يقيّده بالحَسن الذي هو نتاج السّلم لينتفي التفاعل السيّء.

ثانياً: أنه قيّده بأنه بين طرفين، وليس ذلك بلازم فإنه قد يكون بين أكثر من ذلك

ثالثاً: أنه حصره في المجتمع الواحد، وهذا كذلك ليس بلازم فإنه يتجلّى أكثر بين الدّول المتباعدة والمتقاربه.

وعرفه آخر بأنه: المراد به أن تلتقي إرادة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام في العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون لما فيه الخير الذي يعمّ بين البشر جميعا من دون استثناء[2].

ويُنتقد هذا التعريف:بأنه مصوغ بنثر مطنب، ومفتقد للحدود التي تتطلبها التعاريف

وعُرّف أيضاً: هو تعايش أتباع الأديان في دولة أو وطن واحد وفق دستور توافقي بينهم يحقق التعاون في المشترك الإنساني مع الحرّية في الحفاظ على خصوصياتهم الدينية دون اعتداء ولا ازدراء[3].

ويُنتقد هذا التعريف بأنه:

أولاً: أنه وقع في الدّور وهو ممتنع في التعاريف.

ثانياً: أنه حصر التعايش في وطن منحصر الحدود، والأصل أنه متعدّ لذلك.

---

(1) في مفهوم التعايش الديني الماضي والحاضر والآفاق المستقبلية، يسري وجيه السعيد، مجلة ذوات، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط- المغرب، العدد: ٥٨، ٢٠١٩م، ص ٨٠

(2) الإسلام والتعايش بين الأديان في القرن العشرين، التويجري، عبد العزيز بن عثمان، ص ٤

(3) أسس وآليات التعايش مع أتباع الأديان في القرآن والسنة، عبد الحق حارش، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد: ٢٠، العدد الأول، مايو ٢٠١٩، ص ٤٢٨.

ثالثاً: أنه قيّد التعايش بتوافق المختلفين على دستور توافقي، وليس ذلك بلازم فالتعايش هو قيمة توافقية إنسانية لا يقيّدها دستور، بل قد يوجد دستور ولا يكون هناك تعايش.

رابعاً: أنه قيّد التعريف بالحرية في الحفاظ على خصوصياتهم الدينية دون اعتداء، وهذا تحصيل الحاصل.

والتعريف الذي نختاره للتعايش السلمي هو: أُلفة إنسانية تسود بين مختلفي الأديان والثقافات تقتضي استقامة الحياة.

ونقصد بالأُلفة الإنسانية ما تفرزه الفطرة البشرية من مودّة واعتبار للآخر لكونه إنساناً بصرف النظر عن معتقده أو مذهبه.

ونقصد باستقامة الحياة ما تقتضيه الحياة السويّة الكريمة التي تتجسّد فيها القيم الإنسانية؛ من التعاون والتآلف والتوافق على كل أبواب الخير، ويغيب فيها الظلم والعدوان وتنغلق فيها كل أبواب الفساد.

الاصطلاحات المشاكلة للسلم في القرآن:

وردت في القرآن الكريم العديد من الاصطلاحات التي تتداخل مع مصطلح السلم، وهي تشترك في جزء من معناه في الأصل؛ ومن هذه الألفاظ:

١. **الصلح:** ورد في قوله تعَالَىٰ:﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ الحجرات: ٩.

والصلاح ضدّ الفساد. تقول: صلح الشئ يصلح صلوحا، والاسم الصُلْح، يذكّر ويؤنّث. وقد اصْطَلَحا وتصالَحا واصّالحاً [١].

والصلح اصطلاحاً: عبارة عن عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي[٢].

---

[١] الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، ج ١ ص ٣٨٣

٢. **العهد:** ورد في مواضع في القرآن؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ ﴾ التوبة: ٤.

والعهد: الأمان واليمين والموثق، والذمة والحفاظ والوصية. وعهد إليه من باب فهم أي أوصاه[١].

والعهد اصطلاحاً: هو الصلح المؤقت، ويسمى الهدنة والمهادنة والمعاهدة والمسالمة والموادعة.

وأهل العهد: هم الذين صالحهم إمام المسلمين على إنهاء الحرب مدة معلومة لمصلحة يراها[٢].

٣. **الأمان:** قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا ﴾ النساء: ٩١. وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ التوبة: ٦.والأمان والأمانة في اللغة بمعنى. وقد أمنت فأنا أمِن، وآمنت غيري من الأمن والأمان. والأمْن: ضد الخوف. والأمانة: ضد الخيانة. والإيمان: ضد الكفر[٣].

والأمان اصطلاحاً: إزالة الخوف عن الكافر من غير مال[٤].

---

[٢] أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين العلماء، القونوي، قاسم بن عبدالله بن أمير علي، ص ٩١.

[١] مختار الصحاح، الرازي، أبو عبدالله زين الدين محمد بن أبي بكر، ص ٢٢٠.

[٢] الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج ٧ ص ١٠٥.

[٣] لسان العرب، الأنصاري، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، ج ١٣ ص ٢١.

[٤] معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ص ٢١٤.

المطلب الثاني: السّلم أصل العلاقة مع غير المسلمين في الهدي القرآني:

لا يختلف أهل العلم أنّ غير المسلم الذي يعيش بين ظهراني المسلمين أنه محفوظ الدم والعرض والمال، لا يجوز لمسلم ولا غير مسلم أن يتعدّى على شيء من ذلك. واختار جمع معتبر من أهل العلم من المتقدّمين والمتأخرين أنّ السّلم هو الأصل في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين[1]، وذلك باستقراء جملة النصوص القرآنية والتصرّفات النبويّة التي أصّلت لمنهج التعامل مع غير المسلمين؛ أفادت بمجملها أنّ السلم إذا جنح إليه الكفار هو أفضل، والحرب والمقاتلة إنما هي استثناء لأحوال ظرفية تقدر بقدرها، لا تتعدّى محلّها إذا زال سببها، بل عند جمع من العلماء أنّ الجهاد إنما شرع لدرء الحرابة وليس لأجل الكفر[2]. ودلائل هذا المعنى متضمّن في عدّة نصوص[3] قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾ الأنفال: ٦١ وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾ البقرة: ٢٠٨. ويؤيد هذا المعنى ما صحّ في الحديث أنه ﷺ خطب في أصحابه فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية»[4].

وقد نهى النبي ﷺ أمته عن تمنّي المكاره؛ ولهذا كان السلف يسألون الله العافية

---

[1] وهذا القول هو المنقول عن ابن عمر ﷺ وقال به سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن دينار وسفيان الثوري وسحنون بن سعيد راوية المدونة من المالكية، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

[2] فتح القدير، السيواسي، كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بابن الهمام، ج ٥ ص ٤٣٧.، الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه، محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٩٤

[3] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، القلموني، محمد رشيد رضا، ج ١٠ ص ١٢٦.، تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ج ١٠ ص ٤٨.

[4] – الجامع الصحيح، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس، ج ٤ ص ٥١، ح

من الفتن والمحن لاختلاف الناس في الصبر[1].

ومتى ما لاح للمؤمن باب السلامة فهو أولى به ما وجد لذلك سبيلاً قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلَۢا ٩٠ ﴾ النساء: ٩٠.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم**»[2]. أي سالموهم ما سالموكم ولم يبادروكم بقتال[3]. ولهذا لم يجز الإمام مالك ابتداء الحبشة والتُّرك بالقتال وقال: مازال الناس يتحامون غزوهم[4]. بل في السور المدنية ما يدلّ على أنّ القتال إنما لردّ العدوان الواقع من الكفار ودون أن يتعدّى المسلمون ذلك؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة: ١٩٠، و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾ التوبة: ١٣.

ومن أوضح الدلائل تأكيد الكثير من السور المدنية على كفاية الدعوة والتبليغ مع غير المسلمين، وكثير من هذه السور والآيات إنما نزلت بعد تشريع القتال مع الكفار قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ

"٢٩٦٦".،صحيح مسلم ،كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدوّ، ج ٣ ص ١٣٦٢، ح "١٧٤٢".

(1) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، ج ١٠ ص ٢٩٢.

، إكمال المعلم بفوائد مسلم، اليحصبي، عياض بن موسى، ج ٦ ص ٤٣.

(2) السنن الكبرى، النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب، كتاب الجهاد، باب غزوة الترك والحبشة، ج٤ ص٣٠٤، ح "٤٣٧٠".، السنن، السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، كتاب الملاحم، باب في النهي عن تهييج الترك والحبشة، ج ٤ ص ١١٢، ح /٤٣٠٢

(3) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، ج ٣ ص ٥٣٠

(4) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، القرطبي، أبو الوليد محمد بن رشد الحفيد، ج ٢ ص ١٤٤

وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ٢٠. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ المائدة: ٩٩. و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ الرعد: ٤٠.

المبحث الثاني: مرتكزات التعايش السلمي:

الإنسان وعالمية خطاب القرآن

والركائز الكبرى هي الأسس العامّة التي يُفترض أن يقوم على بنيانها التعايش السلمي بين المختلفين، وهي التي يقرّرها وجود الاجتماع الإنساني المتكون من بشر أسوياء.

وقد أرشد الهدي القرآني إلى الركائز الكبرى التي تجمع طوائف البشر بمختلف ألوانهم وقبائلهم وأديانهم، والتي غايتها اجتماعهم على التعايش بسلام، واعتبار لتلك الركائز دونما نظر إلى ما يقع بينهم من الفروق في الدين أو الانتماء العرقي أو القبلي أو غير ذلك.

المطلب الأول: المجتمع الإنساني ركيزة التعايش السلمي.

أولاً: وحْدة الخلق وواحدية الخالق:

ذلك أن جميع البشر لا يتمايزون في الخَلق، فلم يعتبر الهدي القرآني فروقاً خَلْقية على أساسها يختلف البشر، بل أسّس إلى اعتبار الوحدة الخَلْقية نظراً لوحْدة فعل الخَلْق وواحدية الخالق –سبحانه وتعالى- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾ البقرة: ٢١. قال السمرقندي: فقال ﷻ : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، أخبر بالنداء أنه يريد أن يأمر أمراً أو ينهى عن شيء. ثم بيّن الأمر فقال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، يعني وحدوا وأطيعوا الَّذِي خَلَقَكُمْ، معناه: أطيعوا ربكم الذي هو خالقكم، فخلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، يعني وخلق الذين من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعصية وتنجون من العقوبة[1]. كما جمعتهم الخِلقة على الاستواء في القَوامة والكرامة، فكل مخلوق من بني آدم صوّره الخالق قويما كريماً،

[1] بحر العلوم، السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد، ج ١ ص ٣٣.

لا مفاضلة في أصل الخِلقة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء: ٧٠. وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ التين: ٤.

كما أعلمهم بأن خالقهم واحد؛ وهو إلههم الواحد الأحد الذي يتوجّب عليهم إفراده بالعبادة والتوحيد دونما سواه، إذْ واحديّة الخالق تتجلى في تناسق بنيان الكون على تراتيب حكيمة تضمن توازن عمران الكون دون خلل يعتري بنيانه، احتوى ضمن تقاسيمه اجتماع البشر وانزواؤهم في أمكنة مفردة، يتساكنون فيها ويتعايشون، وسُخّر لهم ما في الأرض جميعا، وحقيق بأن يتعايش البشر جميعا في ظل رحمة الواحد الرحمن الرحيم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٢.

وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٦٣.

ثانياً: وحدة الأصل الإنساني:

حيث خاطب القرآن الكريم في غير آية من آياته الناس جميعا بأنهم يجتمعون على أصل واحد، منه خرجوا وانتشروا قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ النساء: ١.

فالله ﷻ يعدّد مِننه ونِعمه على عباده التي من بينها أنه أخرجهم من ظهر واحد؛ وهو صلب أبينا آدم عليه السلام، فوحْدة الأصل تقتضي التعايش عند ذلك الجامع غير المفرّق.

ويذكر أبو جعفر الطبري أن الهدي القرآني في الآية يرشد إلى معاني التعايش بين بني البشر؛ فالله ﷻ "ينبّههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأمٍّ واحدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجبٌ وجوبَ حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أبٍ واحد وأمٍّ

واحدة، وأن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض، وإنْ بَعُدَ التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى، وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذُل القوي من نفسه للضعيف حقّه بالمعروف على ما ألزمه الله له"[1].

وذكر الفخر الرازي في معنى الآية أن الناس إذا عرفوا كون الكل من شخص واحد تركوا المفاخرة والتكبر وأظهروا التواضع وحسن الخلق[2].

وأراد ﷻ بالأمر بالتقوى -كما قال الزمخشري- تقوى خاصة؛ وهي أن يتّقوه فيما يتّصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصْله، فقيل: اتقوا ربكم الذي وصل بينكم، حيث جعلكم صنواناً مفرّعة من أُرومة واحدة[3]. قال الماوردي في قوله تعالى: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ وفي ذلك نعمة عليكم لأنه أقرب إلى التعاطف بينكم[4].

وقد أكد النبي ﷺ على هذا المعنى في أعظم المشاهد مقترنة بحرمة الزمان والمكان،

كما في حديث أبي نضرة أنه ﷺ قال في خطبة الوداع : «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي،

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، ج ٧ ص ٥١٢ - ٥١٣.

(2) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، ج ٩ ص ٤٧٧.

(3) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، ج ١ ص ٤٦٢.

(4) النكت والعيون (تفسير الماوردي)، الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، ج ١ ص ٤٤٦.

ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى»[1].

ثالثاً: وحدة الموطن:

ومن مرتكزات التعايش السلمي هو الاحتواء داخل الوطن الواحد، سواء بالمفهوم القاصر الذي هو البلد المنحصر في حدود مرتسمة معلومة؛ تستدعي ممن ينتمون إليه التعلق والارتباط، الروحي والنفسي القائم بين الفرد ووطنه ومواطنيه الذين تربطهم به علاقات وروابط لغوية وثقافية وروحية واجتماعية وسياسية وهذا التعلق أو الارتباط، يكوّن إخلاص المواطن لوطنه وقيامه بواجباته ومسؤولياته نحوه[2].

وإما بالمفهوم الواسع الذي هو الأرض بما حملت واحتوت، فالله -سبحانه وتعالى- ذرأ بني البشر شعوباً وقبائل في الأرض الفسيحة، واختارها لهم موطناً؛ منها خرجوا، وعليها يتعايشون، وإليها يعودون، ومنه يبعثون يوم نفخة الصور؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ طه: ٥٥، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الملك: ٢٤ أي بثّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلاكم وأشكالكم وصوركم[3]. ولا خيار لهم في استبدال ما لزمهم بالقَدَر، إذ لا يصلح للعيش غيره من المواطن، هكذا اقتضت

---

(1) المسند، الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، ج ٣٨ ص ٤٧٤ ح "٢٣٩٨٤"، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

(2) دور التعايش السلمي في تعزيز قيم المواطنة من منظور إسلامي، عمار باسم صالح، وقائع المؤتمر العلمي الدوري السادس، ملحق مجلة الجامعة العراقية، العدد: ١/١٨، ص ٥٥٧

(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، ج ٨ ص ١٨٢.

حكمة العليم الحكيم الخبير ﷻ

رابعاً: وحدة الفطرة والدين:

إذْ الأصل في جميع بني البشر أنهم يولدون على الفطرة كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1].

ونقل الواحدي وغيره أن جمهور السلف والخلف من أهل التفسير والتأويل أن الفطرة هي الإسلام، كلّ مخلوق يولد مفطورا عليه[2]، وعلى هذا الدين الواحد يجتمعون ويتعايشون، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: ٣٠.

وصحّ في الحديث القدسي أن الله –عز وجلّ– قال: «**إني** خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم »[3].

---

[1] الجامع الصحيح، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لا تبديل لخلق الله﴾، ج ٦ ص ١١٤، ح "٤٧٧٥".، صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر...)، القشيري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ج٤ ص ٢٠٤٧، ح "٢٦٥٨".

[2] الوسيط في تفسير الكتاب المجيد، الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، ج ٣ ص ٤٣٣، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ج ٦ ص ٤٩٢ – ٤٩٣، وفتح القدير، الشوكاني، محمد بن علي، ج ٤ ص ٢٥٨

[3] صحيح مسلم، القشيري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ج ٤ ص ٢١٩٧، ح "٢٨٦٥".، المسند، الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، ج ٢٩ ص ٣٢، ح "١٧٤٨٤".

والدين عند الله واحد مذْ أن بعث الله الرسل وأنزل الكتب، وفُطر الخلق على الدين الواحد، ثبت عليه من ثبت ووافقته هداية الرحيم، وحاد عنه من حاد وأعرض عن صراط العزيز الحميد، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ ﴾ آل عمران: ١٩. فالأديان السماوية ترجع إلى أصل واحد وتنبثق من مشكاة واحدة، لا تبديل ولا تغيير فيها. لذا افترض الله –جل جلاله– على عباده الإيمان بجميع الكتب والرسل، ولا يصحّ ولا يكتمل إيمان امرئ إلا بذلك، وكُفْر بنبيّ من الأنبياء هو كفر بالدين كلّه؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ البقرة: ١٣٦.

المطلب الثاني: عالمية الخطاب القرآني: [1]

إذا عرفنا أنّ دعوة القرآن إلى التعايش السلمي بين بني البشر مؤصّلة في تقاسيم آياته وسوره، فإنّ هذه الدعوة يفترض ألا تكون قاصرة على فئة منحصرة من فئات المخاطبين، بل تتعدّى لجميع أهل التكليف، إذْ العالمية مقتضية أنّ غير المسلم كذلك معنيّ بالخطاب القرآني.

معنى العالمية في الهدي القرآني:

المقصود بالعالمية في الهدي القرآني مَن هو معني بالتكليف بالخطاب القرآني، وهم الإنس والجن جميعاً؛ لذلك فسر ابن عباس ﷺ معنى العالمين فقال: هم الإنس والجنّ. قال الأزهري: الدليل على صحة قول ابن عباس ﷺ قوله تَعَالَىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١،

[1] انظر بحثنا المتوسع: عالمية الخطاب القرآني، ضمن موسوعة التعايش والتعارف في الإسلام، منظمة التعاون الإسلامي ٢٠٢٢م، ص ٣٥١ وما بعدها.

وليس النبي ﷺ نذيرا للبهائم ولا للملائكة، وهم كلهم خلق الله، وإنما بُعث محمد ﷺ نذيرا للجن والإنس[1].

تعريف الخطاب القرآني:

لم أقف بعد بحثي المتواصل على من وضع تعريفا للخطاب القرآني باعتباره مركباً إضافياً، وهذا ألجأني إلى بذل محاولة متواضعة لوضع تعريف للخطاب القرآني فقلنا هو: أساليب الإفهام التي وجهها الله تعالى في كتابه إلى المكلفين. **ومقصودنا بأساليب الإفهام** مختلف وجوه المخاطبات التي تضمنها القرآن الكريم، وهي كثيرة ومتنوعة، فقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي خمسة عشر وجهاً من وجوه الخطاب القرآني. بينما أوصلها البدر الزركشي إلى ثلاثة وثلاثين وجهاً [2]. وزاد عليه الجلال السيوطي وجهاً آخر فأوصلها إلى أربعة وثلاثين وجهاً [3].

وتعددت أساليب العالمية في الخطاب القرآني على عدّة وجوه؛ كخطاب القرآن الكريم **عموم الناس** بأن حامل هذا الوحي ﷺ هو مرسل للناس جميعاً ولم يُبعث لقوم بعينهم؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأعراف: ١٥٨. قال الجلال السيوطي –رحمه الله– : الأصح في الأصول أن الخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يشمل –فضلاً عن المؤمن– الكافر والعبد لعموم اللفظ[4].

وكذا خطاب بني آدم الذي ورد في مواضع من القرآن الكريم كقوله تَعَالَىٰ:﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ الأعراف: ٣٥ . فهذه دعوة عالمية لكل من

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الهروي، ج ٢ ص ٢٥٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر، ج ٢ ص ٢١٧ وما بعدها.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ج ٣ ص ١٠٩ وما بعدها

(٤) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ج ٣ ص ٥٧

يصلهم خطاب القرآن بضرورة الاستجابة لدعوة التوحيد المحمّدية التي استكمل بها بناء المرسلين قبله، وإنفاذ العهد التزاماً ووفاء.

وكذا **خطاب العالمين** الذي ورد في ثلاث وسبعين موضعاً في القرآن كقوله تَعَالَىٰ:﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الفرقان: ١، ليحتوي الجميع بهذا الاصطلاح غير المعهود لا في شعر العرب ولا في نثرهم[1]، ليقضي على الفوارق البائسة التي عهدت في الأمم السالفة؛ من القومية والقبلية وشعب الله المختار؛ ليكون جميع المكلفين سواء أمام خطاب القرآن، من شاء آمن ومن شاء أعرض.

خصائص العالمية في الخطاب القرآني:

١- **عالمية القرآن ربانية** المصدر منبثقة عن الوحي السماوي؛ لذا فهي متسمة بالكمال الذي أودعه فيها الربّ الكامل ﷻ، مما يجعل عالمية القرآن ملبية لحاجات الناس، ومحققة لآمالهم في المعاش والمعاد.

٢- **عالمية القرآن** تقتضي خطاب الله ﷻ لعموم الناس على حدّ سواء دون تمييز، على أساس العدل والرحمة والأخذ بيد المخاطبين إلى سبل الخير والهدى والصلاح.

٣- **عالمية القرآن** تستند إلى منهج ثابت تعاليمه مكتملة، مدوّنة ومبثوثة بين دفّتي المصحف الكريم، لا أحد يمكّن من الزيادة عليها ولا النقصان منها قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

٤- **عالمية القرآن الكريم** هي عالمية متكاملة تمتزج فيها الروح مع المادة وفق نسق وتنظير رباني يضع كلاّ في محلّه،

---

[1] المعجزة- إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ساعي، أحمد بسام، هرندن- فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٦هـ. ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩.

الدلائل النقلية على عالمية الخطاب القرآني:

وهي كثيرة جداً من الكتاب والسنة، نذكر أظهرها على المقصود: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ الأنعام: ١٩. أي أن هذا القرآن نذير لقومه ﷺ الذين بين أظهرهم، ولغيرهم ممن سيبلغهم القرآن حتى تقوم الساعة، فكل من بلغه القرآن من العالمين فهو مشمول بخطابه ومدعوّ إلى اتباعه ما دامت السموات والأرض[١].

وقوله تَعَالَىٰ:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١، فالعالمين من العالم، والعالم هو كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، إلا أن العلماء أجمعوا على استثناء الملائكة من التكليف فوجب أن يكون رسولا إلى الجن والإنس جميعا إلى يوم القيامة [٢].

وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ص: ٨٧. أي أن هذا القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن. نقل هذا غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما.[٣]

ومن السنة ما يؤيد هذا كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أُعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلي: ...وكان النبيّ يبعث في قومه خاصّة وبُعثت إلى الناس عامة »[٤].

ومن الإجماع: اتفاق أيمة الإسلام قاطبة واقع على عالمية الرسالة المحمدية، قال ابن عبد البر: ولا يختلفون –أي أئمة الإسلام– أن محمداً ﷺ رسول إلى الإنس والجن نذير وبشير هذا مما فضل به على الأنبياء أنه بعث إلى الخلق كافة

---

[١] يُنظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، القلموني، محمدرشيد رضا، ج ٧ ص ٢٨٣

[٢] التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، ج ٢٤ ص ٤٢٩

[٣] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، ج ٧ ص ٨٣.

[٤] الجامع الصحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، كتاب التيمم، ج ١ ص ٧٤، ح"٣٣٥".

الجن والإنس، وغيره لم يُرسل إلا بلسان قومه ﷺ [1].

الحكمة الربانية في عالمية الخطاب القرآني:

أظهر الحكم الربانية على عالمية الخطاب القرآني، أنه إذا سلمنا بالإيمان بأنه ﷻ فعّال لما يريد، وأنه على كل شيء قدير، فكما سلمنا لحكمته في بعثه للكتب والرسل إلى أقوام خاصّة، فإن ذلك يقتضي منا التسليم كذلك بالرسول العالمي والكتاب العالمي؛ لأنه ﷻ حكيم بصير بالعباد وما يُصلحهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾ فاطر: ٣١ أي أن الله خبير بأحوال عباده، بصير بما يصلح لهم، فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس في كل زمان ومكان، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ الأنعام: ١٢٤.

وقد قضى وقدّر ﷻ -على مرّ عصور ودهور- أن يبعث الأنبياء والمرسلين إلى أقوامهم خاصة، وهو القادر ﷻ على أن يُبقي سنّته في خلقه على ما أجراها عليه، إلا أنّ حكمته ﷻ اقتضت أن لا يدوم الكون على هكذا حال، ليُنهي بين يدي الساعة سنّة البعثة إلى الأقوام خاصة بالبعثة العامة بالكتاب العالمي إلى الناس أجمعين.

---

[1] التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، النمري، أبو عمر يوسف بن عبدالبر القرطبي، ج ٤ ص ٥٠٥.

المبحث الثالث: مظاهر التعايش السلمي من خلال الهدي القرآني

المطلب الأول: التعايش الديني:

ومن أهمّ المظاهر التي جسّدتها الرسالة المحمّدية الخاتمة أنها أرست في تقاليد المجتمع الإسلامي توافقاً دينياً بين مكوّنات المجتمع المتباين العقائد والمذاهب، وحتى وإن كانت الغلبة للإسلام وله سطوة الحكم، فإنه لا بدّ للمسلم أن يعترف بوجود الآخر على جواره ويحترم خصوصيته الدينية والعقدية، ومع ذلك لم يغفل الهدي القرآني جوانب الدعوة إلى دين الإسلام لكلّ حائد عن السبيل

الدعوة السلمية إلى الإسلام:

ترسّخ في ذهن كثير من الناس أنّ الإسلام والسيف صنوان لا يفترقان، وأنّ دعوة الإسلام انتشرت بالسيف والرمح، وهذا لعمري مخالف للهدي القرآني والسلوك النبوي الذي جسّدته سيرة المصطفى ﷺ في دعوة سلمية عالمية إلى الإسلام،

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ الجمعة: ٢.

وكيف لا والأوامر الإلهية في الهدي القرآني طافحة بالدعوة السلمية وبالموعظة وبالتي هي أحسن، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾ النحل: ١٢٥.

قال ابن عطيّة: أمره الله تعالى أن يدعو إلى الله وشرعه بتلطف، وهو أن يسمع المدعو حكمه، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أجمل موقع، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ التخويف والترجية والتلطف بالإنسان بأن يحله

ويبسطه ويجعله بصورة من يقبل الفضائل، ونحو هذا، فهذه حالة من يدعى وحالة من يجادل دون مخاشنة[1].

وقد باين الهدي القرآني في مناهج الدعوة مع المخالفين بحسب مذاهبهم وأديانهم، فرسم لكل طائفة سبيل دعوتها بما يتوافق مع الخلفية العقدية التي تنتهجها، لكن كلّ بالسلم والحسنى.

١. منهج الدعوة مع المشركين:

لم يكن للمشركين في العهد النبوي خلفية رسالية ولا كتاب يدينون به، بل دينهم لا يعدو خرافات وسخافات ابتدعوها، وآلهتهم أصنام صنعوها وعبدوها، فكان منهج دعوتهم هو تفنيد ادعائهم بألوهية الأصنام التي لا يتقبّل العقل السليم قدرتها في تسيير أمور الكون والعقل،

قَالَ تَعَالَى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ فاطر: ٤٠.

فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجهم ويوجه الخطاب إليهم بانتفاء صفة الإلهية عن أصنامهم، وذلك بعد أن نفى استحقاقها لعبادتهم بأنها لا ترزقهم ،

وبنيت الحجة على مقدمة مشاهدة انتفاء خصائص الإلهية عن الأصنام، وهي خصوصية خلق الموجودات وانتفاء الحجة النقلية بطريقة الاستفهام التقريري في قوله: أرأيتم شركاءكم يعني: إن كنتم رأيتموهم فلا سبيل لكم إلا الإقرار بأنهم لم يخلقوا شيئا. ألهم شرك مع الله في ملك السموات وتصريف أحوالها كسير الكواكب

---

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، ج ٣ ص ٤٣٢.

وتعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح وإنزال المطر[1].

٢. منهج الدعوة مع أهل الكتاب:

لم تعرف دعوة النبي ﷺ مواجهة مع أهل الكتاب في مكة بل توسّم النبي ﷺ في النصارى خيرا، فأرسل أتباعه المضطهدين إلى الحبشة بين أظهر النصاري، وفعلا وجدوا الحماية التي تليق بهم، وقد أبرز الهدي القرآني المودّة التي يستحقها النصارى[2] قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ المائدة: ٨٢.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة عايش بها اليهود، ووضع الميثاق الجامع الذي رسم سبل التعايش السلمي (صحيفة المدينة)، ومع ذلك لم يغفل الهدي القرآني طريق الدعوة السلمية بالحسنى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٦. قال أبو السعود: أي ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ من اليَهودِ والنَّصارى ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي بالخَصلة التي هي أحسنُ كمقابلةِ الخشونةِ باللِّينِ والغضبِ بالكظمِ والمشاغبةِ بالنُّصحِ والسَّورةِ بالأَناة على وجهٍ لا يدلُّ على الضَّعفِ ولا يُؤدِّي إلى إعطاءِ الدَّنيةِ[3].

---

[1] التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، ابن عاشور، محمد الطاهر، ج ٢٢ ص ٣٢٤.

[2] السلم في القرآن والسنة- مرتكزاتها ووسائل حمايتها، الخمليشي، عبد الهادي، ص ٤٦٦.

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى، ج ٧ ص ٤٢.

٣. احترام حرية المعتقد:

واحترام معتقد الآخر من أهمّ ما دعت إليه هدايات آي الذكر الحكيم؛ وأصّل القرآن الكريم للتعدّدية العقدية؛ كونها ظاهرة لازمة للاجتماع البشري الذي تتفاوت فيه مدارك العقول وتختلف قناعات أفراده، ومنها اختلاف معتقداتهم، وتقرير القرآن الكريم لحرّية المعتقد إنما هو إقرار وجود لا إقرار صحّة.

فالهدي القرآني قرّر حقيقة الاختلاف العقدي، بل جعلها من السنن التي تجريها المشيئة الإلهية في مقادير الخلق مذْ بدء الخليقة إلى نفخة الصور قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ هود: ١١٨ – ١١٩.

أي لو شاء الله ﷻ وهو القادر على كل شيء لجعل الناس جميعا من أهل الصلاح، متفقين على الإيمان والخير، ولكنه لم يشأ ذلك، بل قدّر وشاء اختلافهم، وأمره يتبع مشيئته ﷻ فاختلفوا، ولا يزالون مختلفين على أديان شتى فمنهم اليهودي والنصراني والصابيء والمجوسي وغير ذلك...[١]

ولو تأمّلنا في آي الذكر الحكيم نجد أنّه ضمّن فيها ذكر أتباع الأديان وذكر كتبهم المتبوعة؛ فبحساب إحصائي ورد ذكر "أهل الكتاب" والذين "أوتوا الكتاب"[٢] ستين مرّة، و "بني إسرائيل" ثمان وثلاثين مرّة[٣]،

---

[١] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، ج ٩ ص ٤٠١.

[٢] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٩٠.

[٣] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٣٧.

و"اليهود" ثمان مرّات[١]، و "الذين هادوا" عشر مرات[٢]، و "النصارى"[٣]، و "الصابئة" ثلاث مرات، و "المجوس" مرة واحدة، وورد ذكر "التوراة" ثماني عشرة مرة[٤]، و "الإنجيل" اثنتي عشرة مرة[٥].

وإذا تقرّر لدينا أنّ القرآن الكريم قد حقّق واقع وجود الأديان المتعدّدة في جوار الإسلام الصحيح، فإنّ لازِم هذه هذا الإقرار هو تقرير الحرّية الدينية، وقد أكّدها القرآن الكريم في غير آية من آياته؛ قَالَ تَعَالَى:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ البقرة: ٢٥٦. والآية متضمنة نفي في معنى النهي، أي لا تُكرهوا أحدا على دين الإسلام فإنه بيّن واضح، جليّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونوّر بصيرته، دخل فيه على بيّنة، ومن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنّه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسوراً [٦].

ونزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد، قد تهوّدوا وتنصّروا قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين، فنهاهم الله سبحانه وتعالى عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام[٧].

---

[١] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ص ٧٧٥.

[٢] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٣٩.

[٣] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٩٠.

[٤] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٥٨.

[٥] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٨٨.

[٦] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير، ج ١ ص ٥٢١

[٧] جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ج ٥ ص ٤٠٧.، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الزرعي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ص ٢٣٧.

يقول ابن القيم: والنبي ﷺ لم يمنع قبل فرض الجهاد ولا بعده وثنياً دخل في دين أهل الكتاب بل ولا يهودياً تنصر أو نصرانياً تهود أو مجوسياً دخل في التهود والتنصر، بل جمهور الفقهاء اليوم يقرونه على ذلك[1].

وأكّد القرآن الكريم هذا الاختيار العقدي بأنّه حقّ للإنسان، تديره مشيئته وقناعته، وهو الذي يجني عاقبة هذا الاختيار إن أصاب أو أخطأ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف: ٢٩. فالحقّ باد لا يخفى على ذي لبّ نبيه، وزاحت العلل، فلم يبق لكم أيها الناس إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة، أو في طريق الهلاك، وجئ بلفظ الأمر والتخيير لأنّه لما مكن من اختيار أيهما شاء فكأنه مخيّر مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين[2].

ولو تأمّلنا في السيرة النبويّة الشريفة نلحظ تجسيداً صريحاً لحريّة المعتقد، حيث وثّقها النبي ﷺ في عهْد بينه وبين من يعايشه في المدينة من اليهود[3]، **فمما تضمّنته بنود الصحيفة:** " وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني

---

(١) أحكام أهل الذمة، الزرعي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ج ١ ص ١٩٩

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، النسفي، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود، ج ٢ ص ٢٩٨.

(٣) انظر مقالنا: حقوق الإنسان الضرورية في الشريعة الإسلامية —دراسة استنباطية بين صحيفة المدينة وخطبة الوداع، مجلة كلية الإلاهيات- جامعة نجم الدين أربكان—قونيا- تركيا، المجلد: ٣٨، العدد: ٣٨، ٢٠١٤.

عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود الأوس مثل ذلك..."[1].

المطلب الثاني: السلم الاجتماعي:

ويتجسّد التعايش السلمي بين المختلفين في المجتمع الإسلامي في وجوه عديدة يقتضيها العيش الاجتماعي المشترك، وأكّد الهدي القرآني على جملة معتبرة من قواعد السلم الاجتماعي، فمن مهمّات القواعد الرصينة التي وثقها الهدي القرآني:

١. العدل والمساواة:

وإقامة العدل والقسط مقصد عظيم من مقاصد الإسلام، بالعدل يقوم معصم دولة الإسلام ويسود الاطمئنان والسلامة بين الرعيّة جميعا، مؤمنهم وكافرهم، ومتى ما اختلّ ميزان العدل اندكّ بنيان الدولة وآذن النذير بقرب الخراب[2]، وأعلى مراتب العدل أن يتعايش الرعية على سواء، لا يفْضُل أحدهم على غيره، يستوون جميعا في الحقوق والواجبات، بصرف النظر عن مذاهبهم واعتقاداتهم وانتمائهم القبلي وغير ذلك من القناعات.

وقد ذُكر اصطلاح العدل في القرآن الكريم ثمان وعشرين مرّة[3]، كما ورد اصطلاح القسط في القرآن الكريم في خمس وعشرين موضعاً[4].

---

(١) الأموال، ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة، ج ٢ ص ٤٦٦.

(٢) وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– : "وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام". مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام عبد الحليم بن تيمية، ج ٢٨ ص ١٤٦.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٤٨.

وقد جاء الأمر في الهدي القرآني مؤكداً على تحقيق العدل والقسط مع من باينونا في الاعتقاد أو المذهب، بل حتى ولو سبقت منهم عداوة واعتداء؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المائدة: ٨.

اتفق المفسرون على أن الأمر في الآية متوجه للمؤمنين بأن يقوموا بحقّ الله في الكفار والمشركين، ويشهدوا ويحكموا بالعدل فيهم، دون ميل إلى بني دينكم أو قرابتكم، بل حتى وإن اعتدوا على المؤمنين وظلموهم وأدخلوا عليهم الغمّ باعتدائهم على نسائهم وأطفالهم، فلا تحملهم البغضاء للمشركين على ترك العدل والحكم بالجور فيهم، وظلمهم ومعاملتهم بغير ما يحلّ ويليق مما يجب في معاملة الآدمي من نقض العهود معهم، أو قتل نسائهم وصبيانهم وعجائزهم، ثم أكّد الله ﷻ على العدل الموجب للتقوى بعدما نهاهم عن الجور، وبيّن أنّه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا ما يجب من العدل مع الكافر والمشرك، فما ظنّك بالعدل مع المؤمنين[1].

بل يؤكد الهدي القرآني في موطن آخر أنّ من أعظم القربات المستحقّة للثواب هو إقامة العدل والقسط مع المسالمين ممن اختلفوا معنا في العقيدة والمذهب؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الممتحنة: ٨.

---

[٤] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٤٤.

[1] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، ج ٦ ص ١٠٩.، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد، ج ٢ ص ١١٧.

وفي هذه الآية ترخيص من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، أي لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم تفضوا إليهم بالبرّ، وهو الإحسان، والقسط وهو العدل. **فهذا القدر من الموالاة** غير منهي عنه، بل مأمور به في حقهم.

والخطاب وإن يكن في مشركي مكة، إلا أنّ العبرة بعموم لفظه[1]. وقد ردّ ابن جرير الطبري على من حاول تخصيص معنى الآية بمشركي مكة ولا يتعدّى الأمر في الآية إلى غيرهم فقال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾، من جميع أصناف الملل والأديان ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ وتصلوهم، ﴿ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾، إن الله عزّ وجلّ عمّ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ؛ لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرّم ولا منهيّ عنه[2].

وقد ورد في صحيح السنة ما يؤيّد هذا المعنى في وجوب العدل والقسط مع المخالف، ومَن ظَلمه كان سيد الخلق ﷺ خصمه وحجيجه يوم القيامة؛ **ففي الحديث الصحيح عن النبي** ﷺ أنه قال: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[3].

---

(1) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، ج ٩ ص ٢٠٧

(2) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ج ٢٣ ص ٣٢٣

(3) السنن، السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، ج ٣ ص ١٧٠، ح "٣٠٥٢" وصححه الألباني.

٢. الإحسان: والإحسان كلمة جامعة لجميع وجوه الخير، والإحسان يحبه الله ورسوله والمؤمنون، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ البقرة: ١٩٥. و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ النحل: ٩٠. وصحّ في الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء...»[١].

والإحسان هو الإتيان بالعمل متقنا على أحسن وجوهه[٢].

ويعدد مفتي المالكية بمكة محمد بن علي بن حسين المالكي صور الإحسان الذي يقتضيه التعايش مع غير المسلم فيقول: ومنها أن من اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام.

تعين علينا أن نبرّهم بكل أمر لا يؤدي إلى أحد الأمرين:

أحدهما ما يدل ظاهره على مودات القلوب.

وثانيهما ما يدل ظاهره على تعظيم شعائر الكفر.

وذلك كالرفق بضعيفهم، وسدّ خلّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللّطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منا بهم لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم،

---

[١] صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، ج ٣ ص ١٥٤٨، ح "١٩٥٥".، السنن، القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة، كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، ج ٢ ص ١٠٥٨، ح "٣١٧٠".

[٢] مشارق الأنوار على صحاح الآثار، اليحصبي، عياض بن موسى السبتي، ج ١ ص ٢١٢.

وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله، ومن العدو أن يفعله مع عدوه فإن ذلك من مكارم الأخلاق[1].

[1] تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية -على حاشية الفروق للقرافي-، المالكي، محمد بن علي بن حسين، ج ٣ ص ٢٧.

خاتمة

الحمد لله الذي وفقنا لتمام هذا العمل مع ما فيه من الخلل والزلل، وقفنا فيه على بعض ما خطّه الراسخون من المتقدّمين والمتأخرين مما فتح الله عليهم من هدايات الذكر الحكيم في تأسيس المجتمع المتعايش على السلامة مع تباين المذهب والمعتقد.

وقد لاحت ليراعنا بعض النتائج التي هي جديرة بالتخصيص بالذكر:

١. التعايش السلمي من خلال الهدي القرآني يرتكز على جوهر الإنسان السويّ وخطاب القرآن العالمي؛ فالمجتمع الإنساني يلتقي على عدّة مرتكزات هي أساس التعايش كوحدة الخلق، ووحدة الأصل الإنساني، ووحدة الموطن ووحدة الفطرة والدّين.

٢. التعايش السلمي هو أُلفة إنسانية تسود بين مختلفي الأديان والثقافات تقتضي استقامة الحياة.

أنه باستقراء مجمل النصوص في القرآن الكريم والسنة النبوية نستخلص أنّ السّلم هو أصل العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وعلى هذا الأساس ينبني المجتمع المتعايش على السّلم والأمان.

– أسّس الهدي القرآني لقضية التعايش الديني بين مختلفي المذاهب والاعتقادات في المجتمع الإسلامي، فالمواطنة لا تستلزم تمييزا يتأسس على انتماء ديني أو عرقي.

– التعايش السلمي لا يلغي شأن الدعوة السلمية إلى الإسلام بالحوار البناء والموعظة الحسنة مع المخالف.

– احترام حرّية المعتقد من القواعد الكبرى التي يتأسس عليها بنيان المجتمع الإسلامي؛ فالتعددية العقدية والمذهبية من اللوازم المكونة لأطياف المجتمع المتعايش بسلام، وذلك أنّ من سنن الاجتماع الإنساني تقرير الاختلاف

والاختيار، وقد تواتر في الهدي القرآني الأمر الملزم لاحترام اختيارات الغير في مذاهبهم واعتقاداتهم دون لمز أو اعتداء.

– من مقتضيات التعايش السلمي هو تحقيق السّلم الاجتماعي بين مكونات المجتمع الإسلامي، بإقامة ميزان العدل والمساواة دونما اعتبار للانتماء العقدي والمذهبي.

– الإحسان من أعظم القيم التي أعلى شأنها الهدي القرآني، وهو خلق يفترض لزومه في علاقات المسلم مع غيره في جميع أحواله، وأبرز المواطن التي يفترض أن يتجلّى فيها الإحسان هو في علاقاته وتعاملاته مع غيره ممن يختلف معهم في الاعتقاد والمذهب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المصادر والمراجع

١. أحكام أهل الذمة، الزرعي، شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، الدمام، رمادى للنشر، ط١، ١٤١٨هـ.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٣. أسس وآليات التعايش مع أتباع الأديان في القرآن والسنة، عبد الحق حارش، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد: ٢٠، العدد الأول، مايو ٢٠١٩.

٤. إكمال المعلم بفوائد مسلم، اليحصبي، عياض بن موسى، القاهرة، دار الوفاء، ط١، ١٤١٩هـ.

٥. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

٦. الأموال، ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة، السعودية، مركز الملك فيصل، ط١، ١٤٠٦هـ.

٧. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٦هـ.

٨. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، ابن عاشور، محمد الطاهر، تونس الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٩. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١٠. الجامع الصحيح، البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ.

١٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، بيروت، دار الفكر.

١٣. السلم في القرآن والسنة-مرتكزاتها ووسائل حمايتها، الخمليشي، عبد الهادي، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٩هـ.

١٤. السنن الكبرى، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

١٥. السنن، السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، بيروت، المكتبة العصرية.

١٦. السنن، القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٣٠هـ.

١٧. الصحاح، الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧هـ.

١٨. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦هـ.

١٩. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢١. المسند، الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٢. المعجزة- إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ساعي، أحمد بسام، هرندن- فرجينيا- الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٦هـ.

٢٣. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م.

٢٤. النكت والعيون الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٥. الوسيط في تفسير الكتاب المجيد، الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

٢٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٧. أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين العلماء، القونوي، قاسم بن عبدالله بن أمير علي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.

٢٨. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، القرطبي، أبو الوليد محمد بن رشد، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٥هـ.

٢٩. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٣٠. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

٣١. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، القاهرة، مكتبة مصطفى الحلبي، ط١، ١٣٦٥هـ.

٣٢. تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية -على حاشية الفروق للقرافي-، المالكي، محمد بن علي بن حسين، بيروت، عالم الكتب.

٣٣. تهذيب اللغة، الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، بيروت، دار إحياء التراث، ط١، ٢٠٠١م.

٣٤. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٥. حقوق الإنسان الضرورية في الشريعة الإسلامية –دراسة استنباطية بين صحيفة المدينة وخطبة الوداع، محمد رشيد بوغزالة، مجلة كلية الإلاهيات– جامعة نجم الدين أربكان–تركيا، مج: ٣٨، ع: ٣٨، ٢٠١٤.

٣٦. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدليّة النّص والعقل والواقع، عبد المجيد النجار، فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣٧. دور التعايش السلمي في تعزيز قيم المواطنة من منظور إسلامي، عمار باسم صالح، وقائع المؤتمر العلمي الدوري السادس، ملحق مجلة الجامعة العراقية، العدد: ١/١٨.

٣٨. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف، الرياض، مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ.

٣٩. صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٤٠. عالمية الخطاب القرآني، محمد رشيد بوغزالة، موسوعة التعايش والتعارف في الإسلام، منظمة التعاون الإسلامي ٢٠٢٢م.

٤١. في مفهوم التعايش الديني الماضي والحاضر والآفاق المستقبلية، يسري وجيه السعيد، مجلة ذوات، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط– المغرب، العدد: ٥٨، ٢٠١٩م.

٤٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف، مصر، المكتبة التجارية، ط١، ١٣٥٦هـ.

٤٣. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، بيروت، دار صادرن ط٣، ١٤١٤هـ.

٤٤. مجموع الفتاوى، الحراني، شيخ الإسلام عبد الحليم ابن تيمية، السعودية، مجمع الملك فهد، ١٤١٦هـ.

٤٥. محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٦. مختار الصحاح، الرازي، أبو عبدالله زين الدين محمد ، بيروت، المكتبة العصرية، ط٥، ١٤٢٠هـ.

٤٧. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، النسفي، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود، بيروت، دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٩هـ.

٤٨. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى، المكتبة العتيقة.

٤٩. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ١٤٢٤هـ.

٥٠. معجم مقاييس اللغة، الرازي، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٥١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

٥٢. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الزرعي، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دمشق، دار القلم، ط١، ١٤١٦هـ.